المرآه في مواقف الرصافي الادبية
(دراسة تحليلية)

المدرسة المساعدة
نجاة علوان الكناني
جامعة البصرة – كلية التربية

المقدمة :

عالج الرصافي في معظم أشعاره قضايا المجتمع المهمة، ولا سيما قضية المرأة فقد لاحظ طبيعة المجتمع في ذلك الوقت التي لم تكن تسمح للمرأة أن تأخذ دورها فيه، فضلاً عن رغبته في أن يغير العربي من نظرته إليها، وتتيجة لذلك كله أخذ يدافع عن المرأة وينادي في سبيل تحررها.

إن غاية البحث هي بيان الجانب الإنساني لدى الشاعر، وما تركته التربية الأولى في داخله من صورة مشرقة عن المرأة، فجعلها عضواً فاعلاً في المجتمع لا يختلف عن الرجل، بالرغم من معارضة الكثيرين له في وقتها.

أما المنهج الذي اتخذته في دراستي هذه، فهو المنهج التحليلي لبيان مواقف الشاعر الأدبية نحو المرأة، ولهذا فقد قمت بتحليل بعض النصوص الشعرية التي عالج الشاعر فيها قضية المرأة ووصفه لها وتغزله بجمالها.

لقد تناولت في البدء الأسباب التي أدت بالشاعر إلى أن يهتم بالمرأة من خلال بيان علاقته بوالدته، وكيف كانت له مصدر الحب والحنان، ثم بينت علاقته بمجتمعه فذكرت الوصية لتحديد الهدف الأساسي من كل ما كتب ولا سيّما مناصرته للمرأة في قضيتها.
وبعد ذلك درست مواقفه من قضية المرأة ومن حبه وتغزله ووصفه لها مفتية، بتحليل بعض النصوص الشعرية التي وضحت مواقفه تلك.

أسباب اهتمام الرصافي بالمرأة:

لبيان العوامل والأسباب التي أدت إلى اهتمام الرصافي بالمرأة وبقضيتها، لابد من تناول جانبٍ من حياته ولا سيّما الجانب الذي يتعلق بصلته بوالدته وبمجتمعه، وليس الغرض من ذلك دراسة حياة الشاعر، وإنما هو بيان الظروف والعوامل المحيطة به والتي كان لها الدور الفعال في نظرته الإنسانية نحو المرأة على أنّها كائناً فعالاً في هذا المجتمع.

أ- علاقته بوالدته:

ان سبب اهتمام الرصافي بالمرأة فضلاً عن موقفه الدفاعي عنها وعن حقوقها يرجع إلى تربيته الأولى، ولا سيّما علاقته بوالدته التي أنفردت بتربيته، فقد كانت شديدة الاهتمام به بسبب غياب والده المتكرر عن المنزل، لطبيعة وظيفته التي كانت تتطلب منه كثرة الأسفار والتنقلات في مهمات عسكرية، فضلاً عن انها كانت قد وضعت مولوداً مات وهو لم يزل في المهد، لذا فقد أفرغت حبها وحنانها على وليدها الجديد، فوجدها أماً عطوفاً محبة له فأقبل عليها وتعلق بها كثيراً، ولذلك فقد كان يرجع إليها في جميع مشكلاته، فهي ((كانت – كما يقول – مرجعي في كل شئ حتى بعد مجاوزتي العقد الأول من حياتي لاني كنت لا أرى أبي الا قليلاً فهي التي كانت ترسلني إلى الكتاب وانا صغير، وهي التي كانت تجهز لي كل ما يلزم لذلك))(١).

ففتح عينيه على تلك الام الحنون العطوف، التي أهتمت بتعليمه وإلاساله إلى الكتاتيب وتهيئة كل ما يحتاج إليه، فكل هذا قد طبع في قلبه صورة مثالية مفعمة بالحبّ والحنان للأم المربية الفاضلة، ولهذا فقد قال في مقدمة رسالته (تمائم التعليم والتربية): ((واهم هذه المصادر هو المصدر الاول: أعني الوالدين، وخصوصاً الأم منهما، فأن هذا المصدر هو أول مرحلة من مراحل التربية التي بها ينمو ما أودع الله في الطفل من القابلية للصلاح والاستعداد للكمال. فاذا كان هذا المصدر فاسداً، نشأ الطفل فاسداً، وإذا كان صالحاً نشأ صالحاً...))(٢).

فالرصافي هنا يؤكد أهمية دور الوالدين في التربية، ولا سيّما الأم التي تقوم بالدور الأساسي والفعال في الأسرة، فالأم عنده هي أول مرحلة من مراحل التربية ، والتي عن طريقها تنمو القدرات والأستعدادات التي أودعها الله في الطفل، فهي في نظره عماد الأسرة.

ب- علاقته بمجتمعه:

لقد أطل الرصافي على مجتمعه وهو مكبل بقيود الاحتلال والتقاليد، مما أدى إلى سبادة التأخر والانحلال آنذاك في تلك البيئة الاجتماعية، نتيجة الأهمال الذي كانت تعانيه من حكمها وولاتها الذين لم يفكروا في النهوض بها، فضلاً عن ما رأه من الاستهانة بشأن المرأة، فقد أتخذت متعة وسلعة مركونة في البيوت دون مراعاة لرغباتها وطموحاتها، فكتب في احدى رسائله عن حال المرأة في الريف العراقي قائلاً: ((ان المرأة عند هؤلاء لا ترث، بل هي نفسها مال موروث فهي عندهم كالبقرة او الشاة وغير ذلك من دوابهم تباع وتشترى، وتجري فيها المساومة فتعطى في الديات وتمنح متعة في الجنايات، وبالجملة هي مال متقوم حتى ان من كان منهم ذا بنات عد نفسه من الاغتياء...))(٣).

فالرصافي يرى بان الزومن قد تقدم ومع ذا فان مجتمعه ما زال متمسكاً بالعادات والتقاليد الموروثة، ولذا فقد طالب بالعمل الجاد للنهوض بالحياة الاجتماعية وايجاد الحلول للقضايا المهمة ومنها حل مسألة المرأة، فكان يود من أبناء مجتمعه ان يغيروا حياتهم، ونتيجة لذلك كله أخذ يدافع عن قضية المرأة ويجاهد بحرارة في سبيل حصولها على حقوقها ولا سيّما حقها في التعلم والعمل ومساواتها مع الرجل، وذلك ايماناً منه بوجوب توفير الحساة الحرة الكريمة لها في هذا المجتمع، فخصص قسماً كبيراً من أشعاره لخدمة المجتمع وقضاياه المهمة ومنها قضية المرأة.

وسوف أتناول جزءاً من وصيته لكي أبين كيف انه قد خصص معظم أشعاره لخدمة المجتمع وقضاياه الأساسية ومنها الجهل والفقر والمرض، ومناصرته للمرأة في قضيتها ودعواته إلى مساواتها مع الرجل، فلم يكن يهدف إلى منفعة شخصية من كتاباته وانما كان هدفه منفعة المجتمع وبسبب انشغاله بذلك الهدف فهو لم يكن سعيداً في حياته، وقد جاء في وصيته ((كل ما كتبته من نظم ونثر، لم اجعل هدفي منه منفعتي الشخصية، وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذي عشت فيه، والقوم الذين انا منهم ونشأت بينهم، فلذا لم أوفق الى شئ في مياتي يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة...))(٤).

وبذلك تتضح نزعة الرصافي وروحه الإنسانية وكيف أنّه أراد من خلال كتاباته الأدبية خدمة المجتمع ومعالجة قضاياه، ولذا فهو يسعى إلى منفعة أبناء مجتمعه فيكتب ناصحاً لهم بكل صدق وأمانة ناقلاً لهم كل كا يحس ويشعر به تجاههم.

الموقف من قضية المرأة:

خصص الرصافي للمرأة ضمن ديوانه المطبوع سنة ١٩٣١ في بيروت(٥) باباً يحمل عنوان (النسائيات) وفيه دعا إلى تحريرها، فطالب بمساواتها مع الرجل من ناحية الحقوق التي يتمتع بها ولا سيّما حقها في التعليم والعمل، فضلاً عن ذلك فانه ((عند اشتداد المطالبة بحقوق المرأة الاجتماعية، رأى الاسهام في هذا الموضوع الذي يهتم به، فكتب دراسة باللغة التركية اسمها (كلكه قادين اره سنده؟) ومعناها (هل يمكن المساواة بين المرأة والرجل؟) أردفها بترجمة عن اللغة العربية الى اللغة التركية لمقالة في نفس الموضوع كتبها الفيلسوف العربي شبلي شميل، وطبعت الدراسة والترجمة في استانبول عام ١٣٣٣ رومي...))(٦)، وهكذا دعا لمناصرة المرأة والوقوف معها في قضيتها العادلة، فدافع عنها وجاهد في شبيلها، فكانت دعوة صادقة إلى الانصاف من جهة والتقدم والتطور من جهة اخرى.

وان دعوة الرصافي في هذه كانت نتيجة لسيادة الجهل والفقر والأهمال لحق المرأة في الحياة، وتأخر المجتمع العراقي والعربي عن التقدم ومواكبة الحضارة العالمية ((ولقد شارك الرصافي في هذه الدعوة التحررية كثير من دعاة النهضة النسوية، نذكر منهم الشاعر الفيلسوف (جميل صدقي الزهاوي) وشاعر النيل (حافظ إبراهيم)، فإن هؤلاء الشعراء الثلاثة يصدرون عن شعور واحد، ويرمون إلى هدف واحد...))(٧).

وقد عمل على نصرة المرأة العراقية لتساير احتها في البلدان المنادية بتقدمها، وأرسل صيحات مدوية في سبيل خلاصها ((ويمضي الرصافي في المطالبة بإنصاف المرأة وتعليمها ويدعو الى السفور المحتشم. وهو بهذا الصنيع يمثل ما طالب به قاسم امين (توفي ١٩٠٩) في مصر الذي ضمن مذهبه كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) ذلك ان السفور المحتشم لا يناقض الشرع الشريف كما دعا القوم الى التخلي عن النظرة الجاهلية غلى المرأة...))(٨)، إلا ان دعوة الرصافي هذه قد لاقت معارضة شديدة وحورب في رزقه، فهو عند المطالبة بحقوق المرأة كان يختلف عن غيره من المطالبين بذلك، فهو لم يراع طبيعة المجتمع العراقي آنذاك، واختلاف وجهات النظر حول حرية المرأة في ذلك الوقت، فضلاً عن ذلك فانه لم يتخذ موقفاً وسطاً وإنما كان صريحاً فيما

دعا إليه ((ولكن حافظاً كان غير مشتط في دعوته، لأنه يعرف البيئة التي درج فيها ولذلك تجده غير صريح فيما يدعو إليه، أو دعا إليه آنذاك، ولآية التردد في ذلك قوله:

أنا لا اقول دعوا النساء سوافراً بين الرجال يجلن في الأسواق
في دورهن شؤونهن كثيرة كشؤون ربِّ السيف والمزراق
كلا ولا أدعوكم أن تتسرفوا في الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكم حلىً وجواهرا خوف الضياع تصان في الاحقاق))(٩)

وقد وقف الشباب المثقف الواعي إلى جانب الرصافي في دعوته إلى حرية المرأة، وهو بدوره قد دافع عتن موقفه وعن دعوته التي كان يهدف من ورائها إلى المساواة بين أفراد المجتمع كافة، والتخلص من عوامل الشعف ومحاربة الجهل والفقر ((وهو يلتفت غلى من كفره فيحاجهم بما أوتى من حجج سديدة ومنطق مستقيم ويجادلهم ولكن بكل لين وهوادة ثم يكل امره وامرهم على الله:

قل للذي أنحى عليّ بظلمه سفها وجار بقوله وبفعله
الموت يجمع بيننا وسنلتقي عند الذي تثق الخصوم بعد له))(١٠)

ويتضح موقف الرصافي من خلال قصائده التي دعا فيها إلى وجوب إكرام المرأة فطالب بحقوقها وتألم لفقرها وضعفها، وان قسماً من هذه القصائد يدخل في ضمن الباب الذي أسماه بـ (النسائيات) والاخر في ضمن شعره الاجتماعي الذي ذكره في أبواب أخرى ومنها (التربية والأمهات، حق الأم، أمّ اليتيم، أمّ الطفل في مشهد الحريق، اليتيم في العيد، الأرملة المرضعة، المرأة في الشرق، المرأة المسلمة، المطلقة، المهجورة، حرية الزواج عندنا، هو أن المرأة عندنا، نساؤنا، إلى الحجابيين، إلى صاحبة الحياة الجديدة، في سلانيك، الفقر والسقام).

وسوف أتناول بعض هذه القصائد بالتحليل، لتوضيح الدور الكبير الذي قام به الرصافي في الدفاع عن حقوق الرمأة الشرعية والإنسانية ومناصرته لقضيتها.

أ- التربية والأمهات: وهي من أهم القصائد التي نظمها عن المرأة، والتي شاع ذكرها، وذلك لما انطوت عليه من معان دلت على مطالبته بحقوق المرأة، وقد أكد ذلك

الاستاذ مصطفى علي بقوله: ((اما قصيد له (التربية والامهات) وهي أشهر من أن تـذكر فقد شاعت في الأقطار العربية وذاعت وحفظت ورويت وناظمها ثـاو ببغـداد قبـل أن يريمها. وما هي غلا دعوة إلى حميد السجايا، وسمو الخلال وكرم النفس. وحث الآبـاء على تعليم البنات، وتهذيبهن، وسفورهن.))(١١)، فالمرأة كأم ومربية لها دورها الفعال في بناء المجتمع، فهي العامل الأساس في تنشئة الأجيال.

و((بهذه القصيدة يتحدث شاعرنا عن اثر الام في تربية الطفل ويدافع عـن حقـوق المرأة ويحض على تعليمها وتثقيفها، ويدعو إلى تحررها وسفورها ومساواتها بالرجل ولا يتذكر في أية سنة نظمها غير انه قال: كتبتها فـي عهـد الاسـتبداد الحميـدي.))(١٢). فيقول(١٣):

هـي الأخـلاق تنبـت كالنبـاتِ إذا سُـقيت بمـاء المكرمـاتِ
تقـوم إذا تعـدها المُربـي على سـاق الفـضيلة مُثمـرات
وتـسمو للمكـارم باتـساق كمـا اتـسقت أنابيـبُ القنـاة
وتنعش من صـميم المجـد روحـا بأزهـار لهـا مُتـضوعات
ولـم أر للخلائـق مـن محـل يُهـذبها كحـضن الأمهـات
فمحـضن الأم مدرسـة تـسامت بتربيـة البنـين أو البنـات
وأخلاق الوليد تقاس حسنـاً بأخلاق النساء الوالـدات

إنَّ الشاعر هنا يقول إنَّ الأخلاق هي كالبذرة المزروعة، وكما تنمو البذرة بالرعاية كذلك فأن الأخلاق تنبت بالتربية الصحيحة، وحضن الأم خير مكـان لتهـذيب الخلـق، وأخلاق الوليد تقاس بأخلاق والدته، فالأم المثقفة خير تربة لنمو الأخلاق الحميدة.

ثم يعطي صورة لانعكاس تربية الأم الى الطفل كانعكاس الـصورة فـي المـرآة، فيصور الأمومة بفتاة ضمت طفلها على صدرها بكل رقة وحنان، فتنعكس فـي داخلـه طباع تلك الفتاة كلها حتى ضربات قلبها، وبهذا بأخذ من صدرها أول درس في تهـذيب الأخلاق، ونتيجة لذلك يركد ضرورة تعليم المرأة، لان الأم الجاهلة لا يرجى منها تعلـيم أبنائها وإرسالهم إلى المدارس. فيقول:

فيا صدر الفتاة رحبت صدراً فأنت مقر أسنى العاطفات
نراك إذا ضممت الطفل لوحا يفوق جميع ألواح الحياة
إذا استند الوليد عليك لاحت تصاوير الحنان مصورات
لاخلاق الصبي بك انعكاس كما انعكس الخيال على المراة
وما ضر بان قلبك غير درس لتلقين الخصال الفاضلات
فأول درس تهذيب السجايا يكون عليك يا صدر الفتاة
فكيف نظن بالأبناء خيراً إذا نشئوا بحضن الجاهلات
وهل يُرجى لأطفال كمال إذا ارتضعوا ثدي الناقصات

وفي أبيات أخرى يبين زيف وكذب الذين وقفوا ضد مسألة تعليم المرأة، فيؤكد على أن شريعة الدين الإسلامي قد جعلت العلم فرضاً على الرجال والنساء، وإنَّ الرسول الكريم قد علم ام المؤمنين (عائشة) وجعلها بحراً في العلم، وحث المسلمين على ضرورة الرجوع إليها في مسائل الدين. فيقول(١٤):

لقد كذبوا على الإسلام كذباً تزول الشمُّ منه مزلزلات
اليس العلم في الإسلام فرضاً على أبنائه وعلى البنات
وكانت أمنا في العلم بحراً تحل لسائليها المشكلات
وعلمها النبي أجل علم فكانت من أجل العالمات
لذا قال ارجعوا أبداً اليها بثلثي دينكم ذي البينات

وبهذا يتبنى من خلال ما تقدم دعوة الرصافي إلى تعليم المرأة وتثقيفها، فتعليم الأم ضروري لتربية أطفالها وتهذيبهم، فإنْ كانت متعلمة غرست في داخلهم حب التعلم والخلق المهذب ليساهموا في بناء المجتمع وتقدمه.

ب- المرأة المسلمة: لقد وقف الرصافي إلى جانب المرأة المسلمة؛ لأنها أكثر النساء في العالم حرماناً ومعاناة، فخصص لها قصيدته (المرأة المسلمة) لتصوير حالها وما تعانيه من عذاب بسبب حبسها في المنزل، فهو في هذه القصيدة يعطي صورة واضحة المعالم عن حالتها، فلم ير في الناس مظلمة مثلها، فهي مظلمة ومنقوصة في ميراثها، وجاهلة تركن في المنزل بلا عمل. فيقول(١٥):

لـــم أرَ النـــاس ذا مظلمـــة أحـــقّ بالرحمـــة مـــن المـــسلمة
منقوصـــة حتـــى بميراثهـــا وحجوبـــة حتـــى عـــن المكرمـــة
قـــد حعلـــوا الجهـــل صـــوناً لهـــا من كل مـــا يـــدعو إلـــى المأثمـــة
والعلـــم أعلـــى رتبـــة عنـــدهم مـــن أن تلقـــاه وأن تعلمـــه
مـــا تـــصنع المـــرأة محبوســـة فـــي بيتهـــا إن أصـــبحت مُعدمـــة
ضاقت بها العيشة إذ دونهـــا سُدت جميع الطُرق المعلمـــة

فالشاعر هنا يصور حرمانها وما هي عليه من جهل، وما تعاني من ظلم المجتمع لها، مطالباً بضرورة السماح لها بالعمل عندما لا تجد من يقدم لها العون في حال حرمانها من الولي. ثم يصل في نهاية القصيدة إلى القول بأنَّ الإسلام قد أمر بالرحمة للمسلمة بقوله(١٦):

ما هكذا يا قوم ما هكذا يأمرنا الإسلام في المسلمة
فهل بكم من راحمٍ للنسا فهن أولى الناس بالمرحمة

أستعمل الشاعر في تصوير حال المرأة المسلمة ألفاظاً منها (مظلمة، منقوصة، محجوبة، محبوسة، معدمة) فهذه الألفاظ مجتمعة دلت على مدى الظلم المفروض عليها، مما جعله ينادي بوجوب الرحمة لها؛ لأنّها أولى من غيرها.

جـ- الأرملة المرضعة: وهي من القصائد التي يتضح من خلالها إحساس الشاعر الصادق بالألم لحال المرأة الفقيرة وقد ((انشدها الشاعر في الحفلة التي اقامتها (جمعية حماية الأطفال) ببغداد في ١١ من كانون الثاني سنة ١٩٢٩))(١٧)، ويصف فيها وصفاً بارعاً هذه المرأة فهي أرملة تعاني هي ووليدتها الآم الحرمان، و((القصيدة من سبعة وثلاثين بيتاً، وحريّ ان تعدّ من المعلقات في بابها فقد أجاد فيها الشاعر تصوير البؤس والخصاصة في شخص أرملة ذات طفلة. وجاءت القصيدة على ضرب رائق من السلاسة وعلى ضرب رائع من الفخامة وهي أعلى مستوى وأبعد شأواً من كل ما نظمه الشاعر في هذا المدى من القصيد...))(١٨).

ففي هذه القصيدة يصف حال هذه الأرملة وكيف أنَّ الفقر قد أثقل ممشاها، وأثوابها قديمة والرجل حافية وهي تبكي، وذلك لموت زوجها وعدم وجود من يوفر لها ما تحتاجه، فيعطي وصفاً دقيقاً لما وصلت له من شدة فقر وعذاب. فيقول(١٩):

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها تمشي وقد أثقل الأملاق ممشاها
أثوابها رثة والجل حافية والدمع تذرفه في الخد عيناها
بكت من الفقر فاحمرت مدامعها واصفر كالورس من جوع محياها
مات الذي كان يحميها ويسعدها فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
الموت أفجعها، والفقر أوجعها، والهم أنحلها، والغم أضناها
فمنظر الحزن مشهود بمنظرها والبؤس مرآه مقرون بمرآها
كر الجديدين قد أبلى عباءتها فانشق أسفلها وأنشق أعلاها
ومزق الدهر ويل الدهر مئزرها حتى بدا من شقوق الثوب جنباها

وفي أبيات أخرى ينتقل من وصف الأرملة المعذبة إلى وصف وليدتها التي تحملها، فيصف حالتها السيئة وما هي عليه من فقر شديد، مبيناً بعد ذلك شكوى الأم إلى الله، وذلك لعدم وجود ما تتغذى به طفلتها. فيقول(٢٠):

تمشي وتحمل باليسرى وليدتها حملاً على الصدر مدعوماً بيمناها
قد قمطتها بأهدام ممزقة في العين منشرها سمج ومطواها
ما أنس لا أنسى أني كنت أسمعها تشكو الى ربها أوصاب دنياها
تقول يا رب لا تترك بلا لبن هذي الرضيعة وارحمني واياها
ما تصنع الام في تربيب طفلتها ان مسها الضر حتى جف ثدياها
يا رب ما حيلتي فيها وقد ذبلت كزهرة الروض فقد الغيث أظماها
مابالها وهي طول الليل باكية والام ساهرة تبكي لمبكاها

فالرصافي هنا قد شعر بظلم المجتمع لهذه المرأة لعدم وجود من يتكفل برعايتها ويهتم بها، فما قصيدته هذه إلا دعوة منه بضرورة توفير الحياة الحرة الكريمة للمرأة

الفقيرة، فالمرأة في نظره أهم ركائز بناء المجتمع وتقدمه، فهي الأم والأخت والزوجة التي تقوم بتربية وتنشئة الأجيال.

ومن خلال ما تقوم يتضح موقف الرصافي من المرأة في قضيتها، فقد نادى بحقها في المساواة مع الرجل من ناحية التعلم والعمل، وبين بؤسها وحزنها الناتج من الفقر والحرمان وبضرورة قيام المجتمع بتوفير ما تحتاجه في حال إنعدام من يعيلها، لكي تعيش حياة آمنة بعيدة عن الفقر والمرض.

الموقف من الحبّ:

إلى جانب موقف الرصافي الذي عالج فيه قضية المرأة، فهو أيضاً كان الشاعر الذي يفيض حباً وحنيناً نحو المرأة فتغزل بها وبمفاتنها، ولكن عزله لم تكن فيه تلك العاطفة القوية ولا حتى تلك المعاناة المريرة ((ولا تجده كذلك من أولى الحبّ الحار والعاطفة المشبوبة كالعذريين، أو اولى الحب الأفلاطوني كما يسميهم بعض العلماء، كالذي تجده (لجميل بن معمر) ومن اليه من رجال الحب البدوي العنيف العفيف! ولكنه في تنقله قد يشبه من بعض الوجوه عمر بن أبي ربيعة))(٢١).

((أما لغة الغزل في شعر الرصافي فهي لغة تقليدية، بل قل هي لغة الغزل في العصور المتأخرة ...))(٢٢)، فضلاً عن ذلك فأنه كان يقلد الأقدمين في شعره الغزلي ((وقد تراه يحاكي عمر بن أبي ربيعة وامرأ القيس في شعرهما القصصي في تتبع المرأة ووصفها والتحدث اليها كما تجد ذلك في صفحة (١٨) من ديوانه اذ يقول:

وبيضة خدر إن دعت نازح الهوى أجاب ألا لبيك يا بيضة الخدر

الى ان يقول:

مررن وقد اقصرت خطوى تأدبا واجمعت أمري في محافظة الصبر
فطآطآن للتسليم منهن أرؤسا عليها أكاليل ضفرن من الشعر
فالقيت كفي فوق صدري مسلما وأطرقت نحو الأرض منحني الظهر...))(٢٣)

ومن قصائده الغزلية (إلى جميع الغواني، الجمال والعذال، لقيتها في الطريق، أسمعي لي كلاما، ايتها الكعاب، في زحلة، آل الجميل، براعة لا خلاعى، جواب عن كتاب، أم سرى، ذات الشعر الأبيض).

وقد نظم قصيدتي (في زحلة، آل الجميل) متشوقاً ومتلهفاً إلى زوجتــه. فقــال فــي قصيدته (في زحلة)(٢٤):

تقول ابنــة الاقــوام وهــي تلــومني وأدمعهــا رقراقــة فــي المحــاجر
الى كم تجــد البــين عنــي مــسافرا أمــا تــستلذ العــيش غيــر مــسافر
واســكنها عنــي نــشيج لــم تــزل تــردده منهــا بأقــصى الحنــاجر
الى ان تفانى الــصبر فــافتر مــدمعي كمــدمعها عــن لؤلــؤ متنــاثر
ولا غرو أن أبكي أسىً من بكائهــا فأعظم ما يشجي بكاء الحرائــر

((ومن ابنة الأقوام هذه التي حاورها هذه المحاورة الدامعة وخاطبها الخطاب الــذي يفيض لوعة وحرقة، ويتقد مضضاً وأسى؟ من هي غير زوجته الفاضلة؟!))(٢٥).

فالرصافي قد جرب لوعة الحب ومعاناته عندما سافر بعيداً عن زوجته، فيقول فــي قصيدته (آل الجميل)(٢٦):

قد عاقني الإملاق عــن ســفري إلــى مَــنْ طــال مُعتلجــا إليــه حنينــي
وأنا المشوق ولــست ممــن شــاقهم بقــرُ العــذيب ولامهــا يبــرين
لكــن قلبــي لا يــزال يــشوقه ظبــي أقــام بــدار قــسطنطين
فأرش جنــاحي كــي أطيــر بريــشه فيكــون طنــي فــي نــداك يقينــي
واعــذر فــإني بالحقيقــة لــم أبــح الا إليــك وأنــت خيــر فطــين
إني إذا أوى إليك فإنمــا آوى إلى ركن أشد ركيــن

((ومن هذا الطبي الذي أقام بالقسطنطينية الذي طال حنين الرصافي معتلجاً اليه غير زوجه؟ إذن فهو حين هم بالسفر من بغداد إلى الآستانة سنة ١٩٢٢ كان يروم أن يــزور زوجه التي كان يتلهب اليها حنينا واشتياقا...))(٢٧).

<u>أ – الى جميع الغواني:</u> في هذه القصيدة يبين أنّه يحبّ ويعشق ولكن هذا الحــبّ لا يلبث طويلاً، فهو لا يهيم بواحدة بل يوزع قلبه بين هؤلاء الغواني ((ويطفر صاخباً فــي جنباته حيال كل امرأة ويخرج به في الأعم الأغلب من تصرفاته عن المألوف من سلوك الناس فهو يحب كل النساء ويخاطبهن في قصيدة يوجهها الــى جميــع الغــواني))(٢٨). فيقول(٢٩):

وقفت عليكن قلبي الذي يمر به الحب مر السحاب
ومنكن أحببت هاتي وذي والفيت عذباً بكن العذاب
فمنكن بيضاء ما مثلها (عدا حمرة الخد) الا القمر
فتلك التي طاب لي وصلها كما ليلة البدر طاب السمر
ومنكن حمراء جذابة حكى وجهها الشمس عند الطلوع
ارى عينها (وهي خلابة) فأمسك بالكف مني الضلوع
ومنكن صفراء في لونها كأن قد تردت شُعاع الأصيل
إذا ما تمشت على هونها أصحت هبوب النسيم العليل
ومنكن سمراء تحكي الدمى وتبعث في القلب ميت الهوى
على شفتيها يلوح اللمى فيضرم في الصب نار الجوى
ومنكن من هي مثل الرياح لها في ذرى كل قلب هبوب
تريد غلاب جميع الملاح وتبقى عذاب جميع القلوب
ومنكن من هي مثل النجوم من البعد ناظرة تبتسم
فتلك عليها فؤادي يحوم وتلك اليها الردى أقتحم

فالشاعر هنا يرسم صورة عن قلبه الذي لا يستقر على امرأة بعينها، فهو لا يتعلق بواحدة يحبّ البيضاء والحمراء والصفراء والسمراء والمرأة الشبيهة بالرياح والنجوم، فكل واحدة منهن قد تغزل بها وبمفاتنها وأعطى لها صوراً وتشبيهات رائعة، فالبيضاء تشبه القمر عدا حمرة خدها، وشبه الوصل بها بليلة البدر التي يطيب فيها السمر، وأيضاً يحبّ ويهيم عشقاً بالحمراء الجذابة، الشبيهة بالشمس عند الطلوع، وهو لا يستطيع مقاومة جمالها عند رؤية عينها الخلابة، وهكذا إلى ان ينتقل إلى وصف الصفراء وغيرها، وما ذلك التصوير إلا لشدة اعجابه بالنساء الفاتنات.

وفي نهاية القصيدة يؤكد ان حبه لا يقتصر على واحدة. فيقول(٣٠):

ففيكن طراً بوادي الهوى أهيم وإن لم تعد عائده
الا إن حبا بقلبي انطوى كثير فلم تكفه واحده

ب- الجمال والعُذال: في هذه القصيدة يتغزل الرصافي بالمرأة ويصف جمالهـا، وان الله قد وهبها الجمال، فأنذهلت العيون وأحبتها القلوب وتخيلتها العقول، و((قال شـاعرنا: ان هذه القصيدة من قديم شعره ولا يتذكر متى نظمها))(٣١). فيقول(٣٢):

رقـت بوصـف جمالـك الأقـوال ورأتـك فافتتنـت بـك العـذال
وهـب الآلـه بـك الجمـال تجمـلا حتـى كأنـك للجمـال جمـال
كـل العيـون اذا بـرزت شـواخص كيمـا تـراك وغـضهن محـال
واذا الخلـي رآك عـاد بمهجـة للوجـد محتـرق بهـا ومجـال
كم قد سفرت ففي القلوب تولـه لما رأوك وفي العقول خيـال

وتصل شدة إعجابه بجمالها وحسنها إلى القول: إنّها لو كانت في أيام نبينا يوسـف ((عليه السلام)) لما ضربت بجماله الأمثال، فهي صاحبة جمال خلاب يتـشوق لرؤيتهـا النساء والرجال، حتى الأبطال أنحنوا لهذا الجمال. فيقول(٣٣):

لو كنت في أيام ((يوسف)) لـم تكـن بجمال ((يوسـف)) تـضرب الأمثـالُ
ولقطعـت دون الأكـف قلوبهـا شـوقاً اليـك مـع النـساء رجـالُ
كم قد يجور علـى جفونـك سـقمها كـسراً وتجهـد خـصرك الأكفـالُ
عجباً لطرفك وهـو أضعف ما أرى يرنو فترهب فتكهُ الأبطـالُ

فالرصافي هنا يتغزل بالمرأة ويصف جمالها الفتان وصفاً رائعاً، وقد أجاد في ذلـك الوصف بألفاظ دلت دلالة واضحة على شدة إعجاب النساء والرجال بجمالها، فأسـتعمل ألفاظ (أفتتنت بك العذال، كأنك للجمال جمال، كل العيون اذا برزت شواخص، في القلوب توله، في العقول خيال)، فضلاً عن ذلك أنّه قد رسم صورة دالة ومعبرة عن إعجاب الكل بجمالها وبأسلوب واضح، وذلك عندما قال بان جمالها يفوق حتى جمـال نبينـا يوسـف ((عليه السلام)).

الموقف من غناء المرأة:

للرصافي رأي في الغناء فهو يـرى ((إن الاغـاني بغاياتهـا المقـصودة تناسـب المعنويات اكثر من الماديات، فهي بأنغامها المطربة لغة تتخاطب بها الأرواح وتتفاهم بها القلوب، ولما كانت في اندفاعاتها بعيدة عن الماديات كانت أشد تأثيراً في نفوس سـامعيها

كلما ابتعدوا عند سماعها عن الماديات، كلما كانوا الى الحالات الروحية اقرب منهم الى غيرها...))(٣٤)، فهو يشير إلى ان الغناء يجب ان يناسب المعنويات أكثر من الماديات، فيكون مؤثراً في النفوس كلما ابتعد عن المادة، فيجب ان يكون نابعاً من الداخل معبراً عن الحالة النفسية لانه يخاطب بانغامه المطربة الأرواح ((فمن اتيح له أن يسمع تحت أستار الظلام في إحدى غرف الحب والغرام غناء من فم مغرم أو مغرمة مندفعاً عن قلب مثقل بالغرام حاملاً في نغماته روح مُغنية، خالياً من كل صنعة وكلفة فقد سمع مناجاة الأرواح وعلم كيف تكون تلك المناجاة في غناء لا ارتباط له بالماديات))(٣٥).

فمثلما دافع عن المرأة في قضيتها وتغزل بها، أيضاً وصفها كمغنية تطرب الأسماع، ولهذا فهو لديه قصائد يصف بها بعض المغنيات، وكيف إنّهن بغنائهن بدخلن البهجة والسرور إلى نفوس السامعين، ومن هذه القصائد (إلى أم كلثوم، مليكة غناء العرب، منيرة).

أ- إلى أم كلثوم: ان هذه القصيدة ((انشدها الشاعر في مأدبة ادبها لأم كلثوم فريق من الادباء في اوتيل الهلاك ببغداد اصيل يوم السبت ٣ كانون الاول سنة ١٩٣٢))(٣٦)، وفيها يصف موهبة أم كلثوم في فن الغناء وصفاً رائعاً، ويقول بانها هي ربة هذا الفن في المشرق العربي، ولذا ذاع صيتها في جميع البلدان، فإنْ غنت أنسحرنا بغنائها، فهي تمثل الحبّ في أغانيها أروع تمثيل، ويمكن رؤية المحب عند الافتراق أو الاقتران بوضوح في صوتها من خلال الأنغام التي تؤديها. فيقول(٣٧):

أم كلثوم في فنون الأغاني أمة وحدها بهذا الزمان

هي في الشرق وحدها ربة الفن فما أن للفن رب ثاني

وعن تمثيل أم كلثوم الحب في غنائها قال شاعرنا ما نصه: ((نحن نعترف لأم كلثوم بحسن صوتها، وطيب جرسها، ورقة لحنها، وظرف منطقها، ولكننا لا نجعل ذلك وحده سبباً لذيوع صيتها في فن الغناء، بل هي عذا ذلك قد اختصت وحدها بموهبة عالية من مواهب الفن هي انها تمثل الحب في اغانيها تمثيلاً صريحاً بجميع معانيه. وذلك انها اذا أرتقت منبر الغناء نراها مع فرط احتشامها ووقارها تأتينا من حاجبيها وعينها، ومن ثغرها بحركات رمزية ترافق صوتها، وتماشي أنغامها المطربة...))(٣٨)، فهنا يؤكد الشاعر أنّها أختصت بموهبة عالية من مواهب الفن، وهي تمثيل الحبّ في اغانيها من خلال الحركات الرمزية التي ترافق صوتها، وما هذا إلا دلالة على شدة إعجابه بموهبتها.

وفي أبيات أخرى يقول(٣٩):

تنشد الشعر في الغناء فتأتي بلحون مطابقات المعاني
فاذا أنشدت عن الوصل أبدت فيه لحن السرور والجذلان
واذا انشدت عن الهجر جاءت بلحون تدعو إلى الأحزان
كم سقتنا كأس السرور بلحن وبلحن كأسا من الأشجان
تفهم الروح منطق الحب مما تتغنى به بلا ترجمان
فكأن الانغام في الصوت منها ناطقات لنا بغير لسان

فهنا يشير إلى مطابقة ألحانها مع المعاني، فإذا غنت عن الوصل جاءت بألحان تدل على الفرح، وإنْ غنت عن الهجر كان لحنها حزيناً، فيكون الفرح والحزن حسب أنغام صوتها المعبر عن ذلك، فتفهم أرواحنا ما تتغنى به لانسجامع مع مشاعرنا.

لقد أستعمل الشاعر في وصفه لغناء أم كلثوم ألفاظاً سهلة واضحة المعاني، فهي وحدها ربّة هذا الفن وتوازن أمة وليس أحد غيرها، وتمثل الحبّ وتأتي بألحان مطابقة للمعاني سواء في الوصل أو الهجر، وما وصفه هذا إلا تشجيعٌ منه للمرأة في مجال الغناء.

ب- مليكة غناء العرب: ((سمع شاعرنا (منيرة المهدية) تشدو بأغانيها في حفلات أقامتها ببغداد لما جاءت إليها سنة ١٩٢٢ فأثرت في نفسه وأنطقته بهذه القصيدة))(٤٠)، وفيها يدعو إلى سماع غنائها الذي جاءت منه بالعجب، وقد وصلت فيه إلى تحقيق أعلى الرتب بكل سهولة بفضل الله الذي أنعم عليها بجمال الصوت وحسن النطق، ولذلك فهي مليكة غناء العرب في عصرها. فيقول(٤١):

وفي نهاية القصيدة يحث أيضاً على سماع صوتها، وعدم الاهتمام لما جاء حولها من ذم، لان غناءها يزيل المتاعب والهموم. فيقول(٤٢):

أرى الهم يتعب قلب الفتى وعنه الأغاني تزيل التعب
فبادر إليها ولا تكترث لما جاء من ذمها في الكتب

زمن خلال ما تقدم يتضح موقف الرصافي من غناء المرأة، فهي تطرب الأسماع بأنغامها، فضلاً عن أدخالها البهجة والسرور إلى نفوس سامعيها.

نتائج البحث

لقد توصلت في بحثي هذا إلى جملة من النتائج وهي:

١- ان انفراد والدته بتربيته ورعايته، قد ترك في داخله صورة مثالية للمرأة المحبة العطوفة، ولذلك فقد تألم لحالها وما هي عليه من ضعف وفقر، فتحركت مشاعره وأحاسيسه الإنسانية نحوها مطالباً بحقوقها وبوجوب مساواتها مع الرجل.

٢- يتبين من خلال وصيته موقفه الإنساني الواضح فهو شاعر اصلاح وتوجيه، فقد أكد بان هدفه من كل ما كتب هو منفعة المجتمع ومعالجة قضاياه الأساسية، ولا سيّما قضية المرأة وحقها في الحياة الحرة الكريمة.

٣- للرصافي موقف ايجابيّ من قضية المرأة، ويتضح هذا الموقف من خلال قصائده المتعددة عنها، والتي دعا فيها إلى رفع الظلم عنها على أنّها نصف المجتمع، فكان لهذا الموقف الأثر الفاعل في الحياة الاجتماعية، وفي بث الوعي الاجتماعي وتوسيع معنى العدالة.

٤- أمّا موقفه من الحبّ فلم يكن فيه أثرٌ للعاطفة الحادة أو لمعاناة الحبّ، وذلك لانه كان شاعراً اجتماعياً وجه عنايته الخاصة إلى معالجة قضية المرأة والمطالبة بحقوقها الشرعية، ومع هذا فقد تغزل بالمرأة ووصف جمالها ومفاتنها.

٥- شجع الرصافي المرأة في مجال الغناء، موصف المغنيات وصفاً رائعاً، وكيف انهن في أغانيهن يطربن الأسماع ويثيرن المشاعر والأحاسيس.

الهوامش

(١) الرصافي، حياته – اثاره – شعره، عبد الحميد الرشودي: ١٥.

(٢) الرصافي، صلتي به – وصيته – مؤلفاته، مصطفى علي، ج١، ١٠٨.

(٣) نفسه، ج١: ٢٠٨.

(٤) معروف الرصافي، دراسة ادبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية، بدوي أحمد طبانة: ٦٤. وينظر ايضاً حول الوصية: الرصافي، حياته – اثاره – شعره: ٤٤، الرصافي، صلتي به، ج١: ٤٣، معروف الرصافي، حياته واثاره ومواقفه، محمود العبطة: ٣١، ٣٢، الرصافي اراؤه اللغوية والنقدية، د. أحمد مطلوب: ٩٣.

(٥) ينظر معروف الرصافي، حياته واثاره ومواقفه: ٤١.

(٦) نفسه: ٤٠، ٤١.

(٧) معروف الرصافي، دراسة ادبية لشاعر العراق: ١٤٧.

(٨) الرصافي، حياته – اثاره – شعره: ١٥٣.

(٩) معروف الرصافي، دراسة ادبية لشاعر العراق: ١٤٧.

(١٠) الرصافي، صلتي به، ج١: ٥٢.

(١١) أدب الرصافي نقد ودراسة: ٤٨، ٤٩.

(١٢) ديوان الرصافي، مصطفى علي، ج٢: ٣٥٠.

(١٣) ديوان الرصافي، ج٢: ٣٤٩.

(١٤) نفسه: ٣٥٠.

(١٥) نفسه: ٣٤٧.

(١٦) نفسه: ٣٤٨.

(١٧) ديوان الرصافي، مصطفى علي، ج٤: ٥٩.

(١٨) الرصافي في اوجه وحضيضه، الشيخ جلال الحنفي، ج١، ٢٨٦.

(١٩) ديوان الرصافي، ج١: ٢٠٦.

(٢٠) نفسه: ٢٠٧.

(٢١) معروف الرصافي، دراسة ادبية لشاعر العراق: ١٧١.

(٢٢) لغة الشعر بين جيلين، د. إبراهيم السامرائي: ٦٩.

(٢٣) معروف الرصافي، دراسة ادبية لشاعر العراق: ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢٤) ديوان الرصافي، ج١: ٧٨.

(٢٥) ادب الرصافي نقد ودراسة: ٧٦.

(٢٦) ديوان الرصافي، ج١: ٢٤٤.

(٢٧) ادب الرصافي نقد ودراسة: ٧٥.

(٢٨) الرصافي، دراسة تحليلية، عبد اللطيف شرارة: ١٨.

(٢٩) ديوان الرصافي، ج١: ٢٥٧.

(٣٠) نفسه.

(٣١) ديوان الرصافي، مصطفى علي، ج٤: ٢٣٥.

(٣٢) نفسه.

(٣٣) نفسه: ٢٣٦.

(٣٤) الرصافي، صلتي به، ج١: ١٩٨.

(٣٥) نفسه: ١٩٩.

(٣٦) ديوان الرصافي، مصطفى علي، ج٤: ١٤٨.

(٣٧) ديوان الرصافي، ج٢: ٥٢٦.

(٣٨) ديوان الرصافي، مصطفى علي، ج٤: ١٤٩.

(٣٩) ديوان الرصافي، ج٢: ٥٢٦.

(٤٠) ديوان الرصافي، مصطفى علي، ج٤: ١٥٢.

(٤١) ديوان الرصافي، ج١: ٢٥٦.

(٤٢) نفسه.

المراجـــــع

١- ادب الرصافي في نقد ودراسة، مصطفى علي، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ١٩٤٧.

٢- ديوان الرصافي (المجموعة الكاملة) ج (١، ٢)، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر – لبنان، (د. ت).

٣- ديوان الرصافي، مصطفى علي:

أ- ج٢، منشورات وزارة الاعلام، مطبعة الحكومة – بغداد، ١٩٧٤.

ب- ج٤، ط٢، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ١٩٨٦.

٤- الرصافي آراؤه اللغوية والنقدية، د. أحمد مطلوب، مطبعة الجيلاوي – القاهرة، ١٩٧٠.

٥- الرصافي، حياته – آثاره – شعره، عبد الحميد الرشودي، طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ١٩٨٨.

٦- الرصافي، دراسة تحليلية، عبد اللطيف شرارة، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت، ١٩٧٩.

٧- الرصافي، صلتي به – وصيته – مؤلفاته، مصطفى علي، ج١، منشورات مكتبة المثنى ببغداد، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ١٩٤٨.

٨- الرصافي في اوجه وحضيضه، الشيخ جلال الحنفي، ج١، توزيع مكتبة المثنى، مطبعة العاني – بغداد، ١٩٦٢.

٩- لغة الشعر بين جيلين، د. إبراهيم السامرائي، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، ١٩٨٠.

١٠- معروف الرصافي، حياته وآثاره ومواقفه، محمود العبطة، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ١٩٩٢.

١١- معروف الرصافي، دراسة ادبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية، بدوي أحمد طبانه، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ١٩٤٧.